

قراءة في دلالات الفقر والزكاة من خلال سياق آية الصدقات

الأستاذ الدكتور عمار ساسي

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة البليدة.

في الفكر... وهي على الآتي:

- المفردة في القرآن هي دائماً مفتوحة على دلالات لا تنتهي تتسع مع اتساع الفكر والفهم والعقل. في ذلك تثبتت لسمة الإعجاز فيها.
- فهوم القرون الأولى والسابقة يبني عليها ولا يتوقف عندها.
- رؤية العالم هي نظرتة تحترم ولا يغلق باب الاجتهاد بعدها.
- توقف الاجتهاد يعني انغلاق الفهم على الماضي وانعدام قدرته على التجديد حاضراً ومستقبلاً وهذه سمة صريحة من سمات التخلف والسلبية في المجتمع.

الفهم أولاً وأساساً: لا خلاف في أن من قواعد البحث العلمي الأولى التي تنهجها هذه الورقة قاعدة الفهم السليم للظاهرة قبل الشروع في علاجها تحليلياً أو تركيبياً. ولا شك بعد هذا أن الفهم السليم لأي قضية سيقود إلى اكتشاف فضاءات دلالية ومعرفية واسعة وجديدة قد لا تكون معهودة قبل. والأمر يكون أكثر جدية حين يكون مُتعلّقاً بدلالات مفردة القرآن الكريم المعجزة الخالدة... والورقة هذه تخص مصطلحين من الكتاب هما: الفقر والزكاة.

1- دلالات الفقر: أحب أن أشير في البداية إلى نقاط مهمة، قد تقود إلى تصحيح خطأ في الفهم، وتوسيع ضيق

الواحدة إلى دلالات أخرى؟؟.

لقد ثبت في الحديث الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرص في تربية أصحابه على أن يُخْرَجُوا أفكارهم وفهومهم من الحيز الضيق إلى الفضاء الواسع الرحب. قال لأصحابه يوماً: ((أتدرون من المفلس؟؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وحج، ويأتي وقد شتم هذا وظلم هذا وسفك دم هذا وأكل مال هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى عليه، أخذ من سيئاتهم فطرحته عليه ثم طرح في النار)).

ويصوغ هذه السعة في الفهم بقوله: ((ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)) وفي القرآن الكريم نجد إشارات هذا المعنى في غاية الموضوع: مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ البقرة: 177، والإشارات في هذا الصد كثيرة وكثيرة جداً.

- وعليه فالفقر يمكن أن تتجاوز دلالاته دائرة الأموال لتمتد إلى مساحات

• العصر الحديث لم يُوسع الفهم وقد أوشك أن يخبس الاجتهاد في التعامل مع النص القرآني مفردة وتركيباً.

• القوة في غيرنا من ضعف ذاتنا وغناه من فقرنا، وفقرنا من ضيق فكرنا وسوء فهمنا.

• الاجتهاد المتخصص والرأي الهادف إلى فك الحصار وإنقاذ الذات وتصحيح الفكر وإبداع الجديد واجب وضرورة دائمة القرار.

لذا ستخوض الورقة مساراً مميزاً وستجتهد في إخراج دلالات سيميائية جديدة قد تفتح للمشروع آفاقاً.

في دلالات الفقر: لقد صاغ علماء كثيرون للفقر حُدُوداً وتعريفات تكاد عند معظمهم تلبس لبوساً واحداً، ورأينا هل الفقر هو الحاجة إلى المال؟؟ هل الفقر في القرآن محتوم عليه هذا المعنى الآحاد فحسب؟.

- لماذا أحبس العلماء أنفسهم في تحديد الدلالة على المعنى الواحد؟.

- هل يمنع الشرع تجاوز الدلالة

أخرى أوسع وذات أهمية في بلورة الفهم الصحيح للمصطلح، إذ يمكن أن تفكك دلالة مصطلح (الحاجة) فنقول: الحاجة إلى ماذا؟ علماً أن الحاجة إلى الشيء هي فقر إلى ذات الشيء.

فالحاجة إلى المال هي فقر إلى المال. والحاجة إلى الله هي فقر إلى الله. والحاجة إلى العلم هي فقر إلى العلم. والحاجة إلى المساندة هي فقر إلى المساندة. والحاجة إلى الاستثمار هي فقر إلى الاستثمار. والحاجة إلى الدفاع هي فقر إلى الدفاع. والحاجة إلى الهجوم هي فقر إلى الهجوم. والحاجة إلى التربية هي فقر إلى التربية. والحاجة إلى الأخلاق هي فقر إلى ذات الأخلاق وهكذا.

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
فاطر: 15. وأظن أن هذا مفهوم واسع للذهاب إلى تحديده واصطياده. وبالمناسبة أحب أن أصحح خطأ لغوياً أوشك أن يجعل منه قاعدة في التعامل والتداول الطبيعي، فالأصل أن نقول: فلان فقير إلى الشيء، ولا نقول:

فلان فقير في الشيء: قال تعالى (أنتم الفقراء إلى الله) ومدلول تركيب (فقير في الشيء) تفيد معنى دوام الفقر في الشيء أي حاجته الدائمة وهو معنى غير مستو وغير حاصل، لذلك وجب أن يتبعه التركيب في عدم الحصول لعدم الاستواء.

وعليه فالفقر-برأينا- في النص القرآني لا يتوقف على الحاجة إلى المال، إنما يتجاوزه إلى كل عنصر من عناصر حياة الإنسان فوق الأرض فكل ما أنت في حاجة إليه وهو عنصر من عناصر الحياة الأساسية فأنت فقير إليه، وتجب الصدقة فيه دون غيره. فالفقير إلى الأخلاق حاجته إليها أكبر وإنفاقك من الأخلاق له هو صدقة وزكاة، بل قد يكون أثرها أوقع وأصلح من إنفاقك المال له وهو في حاجة إلى الأخلاق مع العلم أن المال هو سيد العناصر في الحاجة.

وبالبحث نجد نصوصاً نبوية تسير في هذا المعنى في غاية الوضوح والبيان. ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: في حديث الصداق الصحيح ((التمس لها ولو خاتماً من حديد قال: ما عندي يا رسول الله: قال: هل تحفظ

ملف الصدق

أحجاراً أخرى، إنما بالمفهوم الحديث هي المال الذي يزكو وينمو. والمال لا ينمو بالكنز وقد ذمَّ الله قوماً يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فلو قدرنا إعطاء الفقر قيمة مالية للاستهلاك لا نكون قد حققنا المقصد الشريف من فريضة الزكاة، إذ الزكاة -برأينا- هي أداة نماء ينمو بها المال، وينمو بها الغني وينمو بها الفقير وينمو بها المجتمع وتنمو بها الحياة، وليس في العصر الحديث من طريق إلى هذا النماء سوى الاستثمار والتوظيف الحسن للفقير الذي نجعل منه فقيراً ينمو ويزكو إلى حد الخلاص من دائرة الفقر، فتكون الزكاة بذلك خير أداة للقضاء على الفقر بالمفهوم الصحيح وبعد هذا كله فإن الأمر المهم والمطلوب معرفته لهذا الفهم السليم هو مقصد الزكاة: والسؤال: ما هو بالتدقيق مقصد الزكاة؟؟

- هل الزكاة هي لإزالة الفقر؟
هل الزكاة هي لإعانة الفقير؟ هل الزكاة لبناء المجتمع؟ هل الزكاة لبناء الغني؟

والجواب: لا شك أن المقصد الصريح

شيئاً من القرآن، قال نعم: قال: علمها شيئاً فإذا حفظته فذاك صدائق (ياهاه) والعبرة هنا كيف يكون القرآن بديلاً عن مال الصدائق؟؟

في دلالات الزكاة: إذا كان مفهوم (الزكاة) في الماضي هو مقدار المال الذي يخرج الغني إلى الفقير كل حول نحلة، فإن مفهومها، في العصر الحديث سيأخذ شكلاً بل أشكالاً حديثة تتجاوب مع العصر وتحقق المقصد.

وتوظيف أصناف الزكاة هو مال دائم يفيد النماء والبقاء، والتوظيف بمال الزكاة هو خير زكاة، ذلك لأن المال المعطى يحقق المصلحة المؤقتة للفقير وأنها تبقى الفقير فقيراً مع الزمن، دون نكران صلاحيتها. في إحداث التوازن المالي في المجتمع من دون أن تزيل ظاهرة الفقر من أصولها. لذا بات الأمر هنا يطلب منا التوجه إلى الأحسن، وليس في ذلك سوى الاجتهاد في توسعه مفهوم الصدقة والزكاة. وأول ما يتبادر أن الزكاة برأينا ليست هي المال المعهود في أذهاننا فحسب ولو كانت كذلك لجاء التعبير عنها بمصطلح (المال) المباشر كان ورقاً أو ذهباً أو

القفر. وإعطاء الزكاة إلى الفقير هو لتزكية حاله وإحيائها، ومنع الزكاة هو تكريس لموته، فكذلك إذا نزل الغيث على أرض قفر أحيائها، وإذا امتنع كرس موتها. وحياة الفقير هنا الموقوفة على المال هي أشبه بحياة الأرض الموقوفة على الماء. قال تعالى: (وأحيينا به بلدة ميتا)، والمال كما يحرم كنزه وحبسه يجب تحريره في خط الاستثمار والتزكية. والمال الطيب هو الذي يتحرك وينمو بالتفعيل، لأنه وجد بين الناس للتداول، فهو لهذا يكون أشبه بالماء في الحياة إن جرى طاب وإن لم يجر لم يطب، وعليه فطيب المال ما تحرك للإنماء وطيب الماء ما جرى للأحياء.

الفقر والزكاة من خلال آية الصدقات: إنه لا بد من الإقرار -بداية- بوجود نوع من الاضطراب وشيء من التداخل وبعض من الهيمنة في المفهوم والمصطلح، ذلك أننا نجد في ساحة التعامل مصطلحا واحداً هيمن على عددٍ وتبعه في ذلك مفهوم بلغ عدداً من المفاهيم. والأمر هنا يخص مصطلح (الزكاة) ومصطلح الفقر.

من الزكاة هو هذا الكل الذي نعلمه نحن اليوم وما لا نعلمه. فالزكاة. هي لتزكية نفس الغني ﴿صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ التوبة: 103 وقوله: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران: 92 وهي لتزكية حال الفقير وإخراجه من حالة الحاجة إلى حالة الكفاف والكفاية، وهي لتزكية المجتمع بإزالة فاقة الفقر وإقامة ميزان التوازن في حياته الذي به يزكو نحو الخير. وحركة التزكية في هؤلاء وهذه هي تزكية في الحياة كلها.

وتجدر الإشارة هنا إلى السؤال التالي: لماذا ربطت الزكاة دائماً بالمطر(الغيث)، في كثير من النصوص النبوية منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((وما منعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء))؟ وما سر العلاقة بين الزكاة والغيث في ذلك؟.

وجوابنا: المال غيث للفقير لأن الفقر هو شدة الحاجة إلى المال والماء غيث للفقير لأن القفر هو شدة الحاجة إلى الماء، وفي كليهما أي الحاجة إلى المال والماء هو شبه موت والمال عنصر نماء لحال الفقير والماء عنصر نماء لحال

ملف الصدقة

وتركيبا. وهنا يبرز دور عالم اللغة الذي يقرر فتوى الدلالة وحكم المفهوم انطلاقا من أن اللغة -عنده- هي وضعٌ واستعمال، هذا الذي يبني عليه عالم الاقتصاد وعالم الاجتماع وعالم القانون دراسته ومعالجته ويؤسس.

- ما هو الفقر؟

- من هو الفقير؟

- من هو المسكين؟. علما أن مقولة الفقير أشدُ احتياجا من المسكين أو العكس ليست تعريفا ولا تحديدا علميا مبينا.

- هل الفقر هو المسكنة؟

- لماذا الفقير يحتوي كل هذه الأصناف؟

- لماذا حديث الناس -اليوم- على الفقير فقط دون سائر الصنوف الأخرى؟

- لماذا هذا الربط بين الزكاة والفقر؟

- هل ذكر الصنوف جاء عبثا في القرآن الكريم؟

أ- الزكاة: وللبيان يمكن عرض السؤال التالي:

- هل الزكاة هي الصدقة في القرآن؟

- ما هو مفهوم الصدقة؟

- ما هي - بالتدقيق - دلالات التراكيب القرآنية التالية:

1. ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ﴾

2. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾

3. ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾

4. ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾

5. ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ﴾

- هل يراد بها عين الزكاة التي سبقت الإشارة إليها؟

إن الوقوف على دلالات المصطلحات هو من باب إنصاف حق البحث العلمي فضلا على أن ذلك يكون مُسهما، في سلامة الفهم وصحة المعالجة. وأجدني هنا مُضطرا للإبانة عن معنى مفاده أن المصطلحات ودقة دلالتها هي مفاتيح العلوم أيا كان حقلها وتخصصها، ثم تأتي المعالجات قائمة عليها تحليلاً

الفقار، وهو من فقد فقرة فعجز عن القيام والحركة. [اسم صفة أصل].

- **المسكين**: أصله من المسكنة وهو الخضوع والذلة وقلة المال وسوء الحال. [اسم صفة أصل].

ويتضح من هذا أن الفقير ليس هو المسكين، وإن اشتبها في الاحتياج وقلة المال وسوء الحال. وقلنا الفقير فيه نية التركيز على الذي نزعنا فقرة من ظهره فانقطع صلبه من شدة الفقر وهو الذي حرمه كسب معاشه فجعله محتاجاً إلى المال أكثر. أما المسكين فالظاهر في اللفظ التركيز على الاستكانة والمسكنة والذلة والخضوع.

الخاتمة: وبعد هذا كله يمكن القول بأن البحث في حقل المصطلح والدلالة لا توفيه هذه الرؤية المختزلة ويبقى للبحث صلته وأهميته. كما يمكن الجزم بوجود اضطراب وغموض وتداخل صريح في دلالات كثير من المصطلحات في شتى الفروع والتخصصات في الاقتصاد والقانون والشريعة والآداب بل حتى في الفروع العلمية والتكنولوجية بدون تحفظ علماً أن المصطلحات والمفاهيم

- ماهي الأبعاد الدلالية التي يمكن استنباطها منها؟

- ما الذي ينبغي قراءته وفهمه منها بعدئذٍ

• وجوابنا يتحدد في الآتي:

إن الآية حين حددت هذه الصنوف فذاك يفيد وجودها في كل مجتمع وزمان، ويفيد وجوب تحديدها وترتيبها وإبانة معانيها وإخراج الفروق الدقيقة بينها في كل عصر. ويفيد بقاء الزكاة واستمرارها بانتقاء الفقير لتمتد إلى المسكين والعامل عليها والمؤلفة قلوبهم... والغارم وابن السبيل وفي سبيل الله.

قراءة لغوية في دلالة المصطلح:

- **الصدقة**: ما ينفق على وجه الصدق مالا كان أو سلوكاً أو شيئاً آخر [اسم صفة الأصل].

- **الزكاة**: ما ينفق لمقصد النماء مالا كان أو سلوكاً أو شيئاً آخر [اسم صفة مقصد].

- **الفقير**: أصله المكسور الفقار. يقال: فقرته فاقرة أي داهية تكسر

المصطلحات، ويفتح طريقاً مستقيماً
للفهم السليمة والمعالجات الصحيحة
والاستنتاجات الناضجة والمثمرة. ■

ملاحظة: للموضوع مراجع

الدقيقة هي مفاتيح العلوم الأمر الذي
يوجبُ الحرص والاهتمام المستمرين
بعلم المصطلح الاقتصادي مثلاً الذي
يتتبع المصطلحات في علم الاقتصاد
يستنطق دلالاتها مُراعياً في ذلك الفروق
الدقيقة بينها لعل ذلك يزيل الضبابية
والاضطراب الحاصلين في دلالات

